شــــــروط الحضـــــارة عند غوستـــاف لوبــــون

Gustave Le Bon's civilization conditions

تاريخ الاستلام: 2022/02/10 تاريخ القبول: 2022/11/26 تاريخ النشر : 2022/12/31

نبيـــل مســــعد*

جامعة باجي مختــار – عنــــابة (الجزائر)

Email : nabil.meciad@univ-annaba.dz

الملخـــص:

في إطار البحث عن عوامل تقدم الأمم وانهيارها ظهرت نظريات عديدة يمكن اختزالها في ثلاثة مجموعات أساسية، أولها ترد ذلك للعناية الإلهية، والثانية تجعله تابعا لإرادة الانسان، والثالثة حاول أصحابها الجمع بين التصورين السابقين. وفي هذه المقالة نكون مع نظرية تنتمي إلى المجموعة الثانية، وقد طرحها المفكر الفرنسي غوستاف لوبون، الذي يعتقد أن الإنسان مؤهل للإبداع الحضاري، بفضل القدرات النفسية والذهنية، إلى جانب القدرات الجسمية التي يتمتع بها، لكنه أضاف إليها ثلاثة عوامل أخرى وهي الزمن والأفكار والبيئة، ويعتقد أنه لا سبيل أمام الأمم التي تريد التقدم والازدهار، إلا حُسن استغلال هذه العوامل الأربعة.

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ غوستاف لوبون؛ الطبع؛ الأمة؛ العوامل النفسية.

Abstract:

In the context of the search for the progress factors and collapse of nations, many theories have emerged that can be reduced to three basic groups. The first is the divine providence, second is the human willingness; the third is a combination between the first and the second. This paper supports the second theory, it was suggested by the french thinker Gustave Le Bon that man has many psychological, mental as well as physical abilities allowing him to be creative, he added time, thoughts and environment, he thinks that exploiting these four factors wisely would lead to civilization's progress.

Keywords: *civilization; Gustave Le Bon, nation, psychological factors.*

* المؤلف المرسل:

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 16/ العـدد 02 –السنة 2022 ص ص 789–818

EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8151

مقدمة

يعتبر موضوع تقدم الأمم من أهم المواضيع التي تؤرق المفكرين والساسة على حد سواء منذ عرفت البشرية طريقها نحو المدنية في الألف الرابعة قبل الميلاد إلى غاية يومنا هذا، وقد عرف الفكر الإنساني نظريات متباينة تستهدف الكشف عن عوامل رقي وازدهار الأمم، فمنها من يردها إلى العناية الإلهية، ومنها من ينسبها إلى البيئة، ونجد من يرى أن التقدم مسألة عرقية، وأنه غير متاح لكل الأجناس. ويعتقد البعض أن آراء المفكر الفرنسي غوستاف لوبون تصب في الاتجاه الأخير، وذلك بالنظر لاهتمامه الكبير بدور الإنسان في الحضارة. لكن هذا التوجه سبقه إليه فلاسفة الأنوار من قبل الذين كانوا يؤمنون بقدرة الإنسان على الإبداع، ومع ذلك لا يصنفون ضمن النظرة العرقية، فهم يعتقدون أن تقدم الأمم مرتبط بنشاط الإنسان بغض النظر عن لونه وجنسه، وهذا ما ذهب إليه لوبون، لكنه يرى أن فعالية الإنسان مرهونة بتوفر شروط أخرى تساعده على المضي في طريق الحضارة فما هي هذه الشروط؟

1 . الإنسان والطبع المبدع

أول هذه الشروط هي الإنسان الذي درسه غوستاف لوبون Gustave Le bon في بعده البيولوجي على أساس أنه طبيب، ثم اطلع على بعديه النفسي والاجتماعي (Catherine R, 1986, 36,37). وعندما انتقل إلى البحث في أسباب ظهور الحضارات وزوالها، بدأ في تفنيد النظريات التي تهمل الإنسان، وتنسب عوامل التقدم لقوى مفارقة معتبرا إياها مجرد أوهام تعلقت بها الإنسانية منذ القدم (لوبون، 1957 ، 50)، كما اعترض على التفسير العرقي للحضارة مع أنه تفسير يسند التحضر للإنسان، إلا أنه بنظره يمثل شكلا من أشكال التعصب والعنصرية، ليخلص إلى رأي مفاده أن تقدم الأمم مرهون بتوفر عوامل نفسية منتشرة بين أفراد المجتمع المنخرط في عملية التحضر.

وأن الإبداع الحضاري ممكن لكل شعوب الأرض، بشرط أن تكون حائزة على صفات نفسية فعالة مثل الإتقان والتضحية والإرادة والشجاعة وغيرها من الصفات النفسية والذهنية الحسنة. وعن كيفية ظهور هذه الصفات ذكر أن الأمر يتعلق بإصرار المجتمع على التقدم، فيعمل على خلق هذه الصفات بمشاركة أجيال متعاقبة تشارك في تعديلها وتشذيبها، وستضمن آلية الوراثة حفظها ونقلها عبر الأجيال (لوبون، 1957، 31). ثم تأخذ هذه الصفات طريقها إلى أعماق المجتمع، لتستقر في اللاشعور الجمعي، وهناك تتحول إلى ما يشبه الغرائز، وعند هذه المرحلة تكون مؤهلة لدفع أصحابها نحو الإبداع تلقائيا (Le Bon G,1931, 43) .

وبهذا المعنى تكون الحضارة صنيعة الإنسان، لكن ليس بنفس الصورة التي نجدها عند فلاسفة الأنوار، إنه يؤمن بقدرة الإنسان على الفعل الحضاري، في إطار المجتمع الذي ينتمي إليه، بفضل الصفات النفسية المنتجة للحضارة، والتي حصل عليها من أسلافه (Le Bon G, 1916, 28) . ولهذا كان يرى أنه لا فائدة تُرجى من التسرع الذي تبديه بعض الأمم في سعيها للنهوض الحضاري، لأن التحضر يتكفل به الزمن. ويرى أنه بدل هذا التخبط على الأمة التي تريد التقدم، الشروع في عملية تكوين الصفات النفسية التي تُساهم في الإبداع خلال أجيال معينة، وفي الوقت الذي تتشكل فيه هذه الصفات وتترسب في اللاشعور الجمعي، يكون المجتمع على موعد مع الحضارة (لوبون، 2011، 199). بفضل اكتسابه للطبع النفسي المناسب للتحضر، فماذا يعني بهذا المصطلح وما علاقته باللاشعور، وهل هو ثابت أم متغير؟

1 . 1 مفهوم الطبع

الطبع في اللغة كما ورد في لسان العرب، هو الطبيعة والخليقة والسجية التي جُبل عليها الإنسان (ابن منظور، 1970: 567). ويعرفه الجرجاني بقوله: هو كل ما يقع

على الإنسان بغير إرادة، وقيل الطبع بالسكون هو الجِبلة التي خُلق الإنسان عليها (الجرجاني، 2006، 126). ومن هذين التعريفين يتبين أن التمثل العربي للطبع يحيل إلى الصفات النفسية التي يتميز بها الإنسان، فيدخل معترك الحياة وهو محملا بهذه الصفات. ولما كانت الصفات النفسية مرتبطة بالجسم، اجتهد البعض في إقامة علاقة بين الصفات الجسمانية للإنسان، وصفاته النفسية، ومن ثم محاولة التنبؤ بما يصدر عنه من أفعال في المستقبل بناءً على تلك الصفات. وهنا ظهر ما يعرف بالفراسة، وهي من الفنون التي لاقت اهتماما خاصا في الثقافة الإسلامية، ومن ذلك أن مُحَمَّد بن عمر بن الحسين الرازي (544 ـ 606 هـ 1150 ـ 1210م)، ألف رسالة بعنوان الفراسة، عرض فيها الطرق المتبعة في التعرف على طباع الناس. والفراسة عنده هي "عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة، على الأخلاق الباطنة" (الرازي، 2006، 9) وقصد بالأحوال الظاهرة صفات الجسم، فقال: "إن الأحوال الظاهرة في الوجه قوية الدلالة على الأخلاق الباطنة، فإن للخجالة لونا مخصوصا في الوجه، والخوف لونا آخر، والغضب لونا ثالثا، وللفرح لونا رابعا، وهذه الألوان متى حصلت في الوجه فإنه يقوى دلالتها على الأخلاق الباطنة، والأحوال النفسانية" (الرازي، 2006، 60).

وفي الفكر الغربي المعاصر تحول موضوع التعرف على طباع البشر، إلى دراسة علمية، وذلك بالتركيز على ما يصدر عن الأفراد من سلوك وردود أفعال، ومحاولة ربط ذلك بالصفات الجسمانية. وأسفرت الدراسة عن محاولات لتصنيف الناس إلى زُمر، فوضِع لكل زمرة صفات نفسية معينة تسمح بالتعرف على ردود أفعالهم مستقبلا. وتركزت هذه الدراسات في فرنسا، ومن بين الأسماء التي أولت هذا الموضوع أهمية كبيرة نذكر ثيودول أرمان ريبو Théodule Armand ribot (1839 ـ 1916م) الذي كتب مقالا سنة 1892م بعنوان في مختلف أشكال الطبع (الدروبي، 1961، 307) .

إلا أن موضوع الطباع انتشر أكثر بفضل أبحاث عالم النفس الفرنسي روني لوسين René Le Senne (1882.1954م)، الذي حاول أن يرتفع بهذه الدراسة إلى مرتبة العلم، فألف كتاب الكذب والطباع (1930م). ثم كتاب علم الطباع (1945م) (الدروبي، 1961، 307) وفيه قدم تعريفا للطبع فقال: "هو مجموعة الاستعدادات الفطرية التي تؤلف الهيكل النفسي للإنسان" (Le Senne R , 1963,16) مؤكدا على الأصول الوراثية للطبع. وكان لوسين يحرص على ألا يقع في الآلية والحتمية، فوضع إلى جانب الطبع، الشخصية والذات، وهذه العناصر الثلاثة هي التي تؤلف الحياة النفسية عنده، دون أن ينفرد أيا منها بالتحكم في سلوك الإنسان، فقال: " في هذه المنظومة المؤلفة من هذه الحدود الثلاثة يمكن أن يشبه الطبع بآلة من الآلات، آلة كاتبة أو آلة عازفة، ويمكن أن تشبه الشخصية بالرسالة المكتوبة أو اللحن المعزوف يخرجان من الآلة، ويمكن أن تشبه الذات عندئذ بالضارب على الآلة الكاتبة أو الآلة العازفة" Le (Senne R, 1963,17) ثم قام بتصنيف الناس إلى ثمانية نماذج، لكن الأمر بالنسبة لغوستاف لوبون لا يتعلق بالأفراد، وإنما بالطبع النفسي للشعب كله.

1 . 2 الطبع النفسي عند لوبون

يستخدم غوستاف لوبون، مصطلحا مركبا، وهو الطبع النفسي caractère psychologique ويعني به مجمل الصفات النفسية الفعالة التي تنتشر لدى المعدل المتوسط في المجتمع، ويتألف من المشاعر والعواطف التي كانت في أصلها أفكارا قابلة للتداول في صورة ألفاظ، ثم أخذت في التحول إلى مشاعر خلال أزمنة طويلة، وهذا ما عبر عنه بقوله: "يتألف الطبع caractère . حسب ترجمة عادل زعيتر . من امتزاج مختلف العناصر التي يطلق عليها علماء النفس المعاصرون المشاعر عادة " (لوبون ، 1957، 49). وتَشَكُّل الطبع عند لوبون لا يختلف عن تشكل المجتمع، لأنه في الوقت

الذي يتكون فيه هذا الأخير، تكون معالم طبعه النفسي قد اتضحت على غرار ما يحدث لدى الفرد الذي لا يمكن الفصل بين نمو جسمه وتَشَكُّل صفاته النفسية. إنه ليس مجهودا فرديا، بل مشروع شاركت في تكوينه أجيال عديدة. وإذا كان لوسين يرى في الطباع مجرد استعداد ذهني، والاستعداد الذهني كما نعلم قد يتحقق وقد لا يتحقق، مانحا الذات بعضا من الحرية في التصرف بعيدا عن سلطة الطباع، فإن لوبون يقُيد الذات، ويمنح الطبع السلطة الكاملة للتحكم في سلوك الأفراد.

1 . 2 . 1 الطبع النفسي والمشاعر:

المشاعر والعواطف التي يتألف منها الطبع عند لوبون أوسع مما هو معروف لدى علماء النفس، فإذا كانت تشمل عندهم الحب والشفقة، والكره والبغض والحقد والحسد، وغير ذلك من العواطف الإيجابية والسلبية (عيسوي: 1989، 137)، فإنها توسعت عنده لتشمل كل الدوافع التي تحرك الأفراد والجماعات. أما من حيث مصدرها، فإن علماء النفس يعتقدون أنها تنشأ بعد ميلاد الطفل، بدافع من اللذة والألم، فتنشأ العواطف الإيجابية تجاه من يحسنون معاملته، وتنشأ العواطف السلبية تجاه من لا يجد عندهم إلا الأذى (عيسوي: 1989، 139). لكن لوبون يرى أن المشاعر في ظهورها لا علاقة لها بالبيئة الاجتماعية، ولن تنتظر الميلاد حتى تبدأ في التشكل، لأن الطفل يأتي محملا بها في جيناته، فلا فرق عند لوبون بين الصفات الجسمانية والصفات النفسية، فكما يرث عن أبائه شكل الجسم ولونه يرث عنهم الصفات النفسية.

والمشاعر عنده لا تختلف عن الغرائز، سواء في مصدرها أو سلطتها، وتحكّمها في مصير الإنسان، ففي كتابه (الآراء والمعتقدات) les opinions et les croyances قال:"من يعرف كيف يتصرف في مشاعر الناس، لا يلبث أن يصبح سيدهم " (لوبون ، 1946، 70) ويعتقد هذا المفكر، أنه لو عرفنا حقيقة هذه الصفات وتغلبنا عليها،

سنكون بذلك قد حصلنا على ما كُنا نعزوه للآلهة قديما (لوبون، 1946، 61)، فهي المسؤولة عن كل تقدم أو تخلف يطرأ على المجتمعات، وهي التي تؤجج النشاط وتُلهم الإبداع. ومن هنا تأتي أهمية المشاعر في مسيرة الأمم، ولا يمكن القول أنها تحولت إلى طبع نفسي للمجتمع إلا إذا أمكن ملاحظة نتائجها لدى السواد الأعظم من أفراده، أو ما يعرف عنده بالمثال المتوسط للأعراق type moyen. وقد تدعمت أراء لوبون في الطبع وسلطة المشاعر، بالأبحاث التي قام بها العلماء على مستوى الدماغ البشري، والتي أكدت لهم أن الإنسان الحالي سيواجه مشاكل الحداثة بنفس العواطف والمشاعر التي كان يستعملها الإنسان في عصوره الأولى (الدر، 1983، 90).

إن الطبع النفسي عند لوبون بعد استقراره في أعماق المجتمع، هو من يضبط حياة الأفراد، ويمدهم بأسباب القوة والإبداع. لذلك على المجتمع الذي يسعى للتقدم أن يتوفر على طبع نفسي مليء بالمشاعر الملهبة للحماس لدى طبقاته المتوسطة. مثل الثبات، والنشاط، وقابلية ضبط النفس، واحترام القواعد التي تقوم عليها حياة المجتمع. بالإضافة إلى العناد، والاستعداد للتضحية في سبيل مثال عال، والإرادة القوية، والهمة العالية، وقوة المبادرة دون انتظار مساعدة من أحد، والاستقلالية، والشعور الديني الشديد، واحترام الواجب، والتفاؤل التام، والاعتداد بالأمة، بالإضافة إلى القدرة على التمييز بين ما هو عملي وايجابي وما هو غير ذلك، وتجنب المباحث الوهمية، والابتعاد عن الجدل في الدين، واحترام العادات احتراما دينيا، واحتقار الضعف، وتَمثُّل النظام في السلوك (لوبون، 1946، 49).

1 . 2 . 2 الطبع النفسي والتعليم:

هذه الصفات الضرورية للإبداع لا تُدّس حسب لوبون، وحتى لو تم تدريسها فلا قيمة عملية للمجهودات المبذولة لأجل تعلمها (لوبون، 1928، 360)، لأن التعليم

لا يمكّنها من التغلغل في أعماق النفس، وإن لم تُدرِك هذه الصفات تلك الأعماق فلن تتحول إلى طبع نفسي فعال أبدا. وهذا لا يعني أنه يرفض التعليم، وإنما يرفض بعض المناهج المعتمدة فيه، إذ لا فائدة ترجى من المحاولات التي يهدف أصحابها لزرع الصفات النفسية الحسنة في النشء، عن طريق البرامج التعليمية التي تعتمد على الحفظ، ولا تستهدف وصول المواد المقررة إلى أعماق المتعلم، إن هذه البرامج لا تفيد إلا في تنمية الذاكرة، وهي قدرة غير مهيأة للتعامل مع الأوضاع الجديدة. ولا معنى عنده لجلب مناهج تعليمية أثبتت كفاءتها في بعض المجتمعات، لأن التعليم عنده لن يكون فعالا ومؤثرا إلا إذا كان ملائما لعادات التلميذ ويتماشى مع طباعه النفسية (لوبون، 1949، 410). ويرى أن الإصرار على استخدام هذه المناهج التي تتعارض مع عادات المتعلمين لن تتسبب إلا في إرباك الطبع النفسي لهذه الأمة، ويجرها في نهاية الأمر إلى مستوى أدنى من المستوى الذي كانت قد تصل إليه لو تُركت وشأنها (لوبون، 1957، 85، 86). وشاهده على ذلك ما لاحظه في الهند، فقال:" لا تجد في التاريخ مثالا أوضح من مثال الهند في إثبات الخطر الذي ينجم عن منح أمة تربية غير ملائمة لمزاجها النفسي، فقد أدى تطبيق التربية الأوروبية على الهندوس إلى تقويض ثقافته السابقة التي تَمَّت له مع الزمن، وإلى إحداث ما لم يعرفه من الاحتياجات، من غير أن تَمُنَّ عليه بوسائل قضائه، وإلى جعله بائسا عدوا لمن طبقوها عليه" (لوبون، 2010، 699) فكان يتعامل مع انتحال مناهج التعليم بكل حذر، بل ويعتبره خطرا محدقا بالأمة، إن لم تلتزم فيه الشروط الضرورية، خاصة ما يتعلق بالمخزون الوراثي. إن التعليم الذي لا ينسجم مع طباع المتعلم قد يكسبه طلاءً خارجيا يبدو معه للناظر أنه اكتسب صفات نفسية جديدة، في حين عمقه مازال محافظا على أصله، فليس من السهل تجاوز ثقل عشرات القرون في سنين معدودة (لوبون، 1957، 53).

إذن التعليم الناجح عند لوبون، هو الذي يتلاءم مع القاعدة الوراثية لأفراد المجتمع، ويكون منسجما مع طبعه النفسي، وينبغي أن يستهدف تنمية الإرادة وروح المبادرة عند المتعلم، أما إذا كان يستهدف تعزيز القدرة على الحفظ، فخطره عظيم على مستقبل الأمة، وهذا ما لاحظه لوبون على التربية والتعليم في بلده فرنسا، لقد وجد أن العملية التربوية تقوم على خطأ نفسي فادح، حيث يطلب من المتعلمين استذكار الكتب المدرسية بهدف تطوير الذكاء، وهذا لن يتحقق عند لوبون، لأن التلميذ يبتلع مضمون الكتب دون هضمها (لوبون، 2011، 108) وكان على المؤسسات أن تخلق في المتعلم الإرادة القوية التي يتخطى بها كل ما يعترضه من عوائق في مختلف ميادين الحياة، والابتعاد عن المناهج التي تعمل على تضخيم الذاكرة لدى المتعلمين فقط، فالتعليم الناجح عنده هو ذلك التعليم الذي يحول ما هو شعوري إلى ما هو لاشعوري (لوبون ، 1949 ، 306)، وهنا يصبح المتعلم يقوم بأعماله بشكل تلقائي دون تصنع أو تكلف أو تذمر.

1 . 2 . 3 الطبع النفسي واللاشعور

إن المشاعر المكونة للطبع النفسي للشعوب سواء كانت مستفادة وراثيا أم مكتسبة عن طريق التعليم لن يكون لها أية أهمية عند لوبون ما لم تستقر في اللاشعور، وفي هذه الحالة فقط يمكنها ممارسة سلطتها على الفرد الذي يحملها، شأنها في ذلك شأن الغرائز، التي تدفع الكائن الحي للقيام ببعض الحركات والأعمال بطريقة غامضة (يونغ، 1994، 64)، كذلك المشاعر تتدخل من هناك في توجيه سلوك الإنسان دون أن يتفطن لدورها. (Le Bon G ,1915, 2) .

واللاشعور لم يكن معروفا في الدراسات النفسية التقليدية، التي كانت لا تفصل بين ما هو نفسي وما هو شعوري، لكن مع بداية القرن العشرين، تمكن علماء النفس

بما توفر لهم من دلائل عقلية وتجريبية، من اكتشاف قسم كبير في الحياة النفسية لم يثر الانتباه من قبل لأنه يتواجد في منطقة بعيدة عن الوعي (المليجي، 2004، 31)، وكان غوستاف لوبون من العلماء الذين ساهموا في إنارة هذا الجانب المظلم من النفس الإنسانية، من خلال كتابه السنن النفسية لتطور الأمم (1894م)، حيث أشار إلى هذا الجانب بكل وضوح، فقال: "إن المبادئ التي تسير الحضارة لا تكون مؤثرة إلا بعد هبوطها من دوائر الشعور إلى دوائر اللاشعور" (لوبون ، 1957، 144، 145) وتأخذ الحياة اللاشعورية عند لوبون شكلين، فهناك اللاشعور العضوي، ويعرف عنده بمنطق الحياة، واللاشعور النفسي. ويشمل الأول وظائف الأجهزة العضوية مثل الجهاز الدموي والجهاز التنفسي، أما اللاشعور النفسي فإنه لا يزال عالما مجهولا، إلا أنه يمثل السبب الرئيسي في كل تصرفاتنا، وآمل لوبون أن تساعد العلوم التجريبية، في الكشف عن القوانين المتحكمة فيه مستقبلا. ولم يخف سيغموند فرويد ـ الذي اقترن اسمه باللاشعور. اهتمامه بأبحاث غوستاف لوبون في هذا المجال، فكان يقارن النتائج التي يصل إليها، بما انتهي إليه لوبون من أراء (فرويد، 2006، 29).

إلا أن لوبون كان يركز على الجماعات، وبالتالي كان اللاشعور عنده جمعي، في حين فرويد كان يهتم باللاشعور الفردي، وفكرة اللاشعور الجمعي ظهرت أيضا في أعمال يونغ، خاصة في كتابه البنية النفسية عند الإنسان (يونغ، 1994، 77)، أين وظف مصطلح الخافية الجامعة أو اللاشعور الجمعي. وقد يكون لكل من لوبون وفرويد ويونغ نصيب في توجيه الانتباه لهذا الجزء من الحياة النفسية، خاصة وأنهم ينتمون إلى عصر واحد وثقافة واحدة. ومهما يكن فاللاشعور عندهم شرط أساسي في فعالية ما يتوفر عليه الإنسان من أفكار وما يصدر عنه من سلوك.

وإذا كان اكتشاف اللاشعور وسيلة لعلاج بعض الأمراض النفسية عند أصحاب التحليل النفسي، فإن لوبون ينظر إليه باعتباره الخزان الحقيقي للمشاعر التي

تدفع الإنسان إلى القيام بأعماله فقال:" تتجرد الجماعات دائما عن الشعور بعملها، وقد يكون هذا هو السر في قوتها، على أنّا نشاهد في الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الإلهام تأتي بأعمال دقيقة يحار الإنسان في معرفة جليل صنعها، ذلك أن العقل جديد في الوجود الإنساني، وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الأفعال اللاشعورية" (لوبون، 2007، 6)، لأنه لاحظ وجود فرق كبير بين قيام الفرد بأعماله عن تروي وتخطيط وتفكير، وإتيانه إياها عن لاوعي. فإذا كانت الأولى تتطلب بدل مجهودا فكريا معقدا، فإن النوع الثاني من الأعمال، يتميز بالسلاسة والسهولة والفعالية، بالإضافة إلى الإتقان، ويرى أن اغلب أفعال الإنسان تنتمي إلى النوع الثاني، فقال:" دَلَّ العلم الحديث على أن الحوادث اللاشعورية تمثل في الحياة دورا أهم من الدور الذي تمثله الحوادث العقلية في الغالب" (لوبون، 1946، 24).

إن المجتمع الذي يتوفر على صفات نفسية فعالة مترسبة في اللاشعور الجمعي ستنعكس بالإيجاب على كل ما يقوم به أفراده، " فلا تلبث ممارسة إحدى الصنائع أن تصبح سهلة، بعد أن يصير اللاشعور مديرا لها" (لوبون، 1946، 25). وهذا يعني أن الإبداع الحضاري عنده، لا علاقة له بحسن التعلم، أو صلاحية الأنظمة السياسية والاقتصادية، فكل هذا يعتبره لوبون نتيجة لما يتوفر عليه أفراد المجتمع من المشاعر والأفكار المستقرة في اللاشعور وليس سببا. إن الشعب الذي يشتمل على هذه الصفات سيقوم بأعماله على أحسن وجه، مثلما هو الوضع في عالم النمل والنحل، فهذه المخلوقات تقوم بأنشطتها بشكل مثالي رغم افتقارها لعنصر الذكاء.

هذا التصور الذي يربط الحضارة بالطبع النفسي الموروث والمستقر في اللاشعور، جعل لوبون يستبعد أن يتحول الإنسان في بعض الدول الإفريقية والأسيوية متى شاء إلى عنصر فعال على غرار نظيره في ألمانيا وانجلترا، ويرى أن هذا الحكم ليس

له صلة بالتمييز العنصري، لأن الانجليزي ما كان ليتوفر على تلك الصفات النفسية المبدعة، لولا استناده لقاعدة وراثية تمتد لقرون عديدة، ساهمت في تكوينها الأجيال السابقة التي مر بها مجتمعه، والأمر مُتاح لكل الأجناس لكن عليهم أولا بداية المسير، والعمل على اكتساب هذه الصفات، والاستمرار في تحسينها وصقلها عبر أجيال متعاقبة، إلى أن يأتي جيل يضارع الإنجليز الحاليين في طباعهم النفسية (لوبون، 1957، 53). وهنا تعفي الوراثة الإنسان من إعادة تجارب أسلافه، وما يترتب عن ذلك من إهدار للوقت دون طائل، وهذا ما ذهب إليه فرويد أيضا في قوله:" لو كانت السيرورات النفسية عند جيل بعينه، لا تنتقل إلى جيل آخر، ولا تتواصل لدى جيل آخر، لكان على كل جيل أن يعيد من جديد تدرجه وتمرنه على الحياة، مما كان سينفي كل تقدم وكل تطور" (فرويد ،1997، 206)، ثم أن القول بوراثة الطباع واستقرارها لا شعوريا في الحياة النفسية عند غوستاف لوبون، قد يؤيده التوزيع غير المتساوي لمراكز الحضارة والإبداع في العالم، وعليه فإن أسباب النشاط الذي يمارسه الإنسان في نظر هذا المفكر، تقبع دائما في اللاشعور الجمعي، فيقوم بأعماله بطريقة لا تختلف كثيرا عن الأعمال التي تستدعيها غرائزه. لذلك كان ينصح الحكام ورجال السياسة بضرورة الاهتمام بهذه الدوافع المستترة، لأنها هي التي تقود الأفراد والحشود (Le Bon G, 1916,128). وبالتالي لا مجال للقول بالنهضة المفاجئة حسب هذا التصور، فكل ما تعرفه الأمة من تقدم أو تأخر يعود لدوافع مستقرة في أعماق المجتمع.

1 . 2 . 4 الطبع النفسي بين الثبات والتغير

انتهينا إلى أن الطبع النفسي عند لوبون هو مجموعة من الصفات النفسية التي يتوارثها أفراد المجتمع من الآباء والأجداد، والمستقرة لا شعوريا في أعماقهم، ومن هناك تمارس سلطتها وتؤثر في كل ما يصدر عن أفراده من أعمال، وفي هذه الحالة نكون

أمام صفات نفسية وراثية ولاشعورية تميل إلى الثبات، وميلها للثبات حسب لوبون ناتج عن ظهورها البطيء (لوبون، 2009، 60). لكن إذا كان الطبع ينزع إلى الاستقرار والثبات، فإن العالم من حوله في تطور مستمر، وهنا تبرز مشكلة التكيف مع الأوضاع الجديدة، وقد كان لوبون على وعي بهذه المعضلة التي قد تشكل خطرا على الأمة، فقال:" يمنح ذلك الثبات في الروح القومية للأمة قوة عظيمة، ولكنه قد يصبح شؤما عليها إذا ما استقر كثيرا، إن الأمم التي لا تتكيف مع مقتضيات العيش الجديد تنحط لعدم المرونة" (لوبون: 1957، 17) وهنا أصبحت المرونة ضرورة لا يمكن تجاهلها، ولو غابت فإن الطبع يتكلس ويتحجر، ويتوقف عن اكتساب الأفكار الجديدة، وهذا يمنع تجدد المشاعر القديمة التي لم تعد قادرة على تحقيق التكيف المطلوب (لوبون: 1957، 17) وكل محاولة لتفادي هذا المصير المأساوي للمجتمع ستكون محفوفة بالمخاطر. لأن الصفات النفسية للمجتمع ليست بنت اللحظة، وإنما تعود لقرون عديدة، مرت بها الأجيال المتعاقبة، فليس من السهل التخلي عنها واستبدالها بصفات أخرى تكون ملائمة ومنسجمة مع التطور الحضاري في أيام أو بضع سنين.

لهذا يرى لوبون أن التراكمات التي تُكّون روح أي شعب وتجعلها ثابتة وصلبة، ينبغي ألا تصل إلى درجة من الثبات، تغلق معها أبواب المرونة، وتمنع اكتساب الجديد والمفيد. وإذا كان ثبات الطبع النفسي مطلوبا لأجل استمرار تَمَيُّز الأمة عن غيرها، فإن المرونة ضرورية أيضا لأنها تحقق التكيف مع التغيرات الناتجة عن التطور الحضاري. والفشل في تحقيق التوازن بين الثوابت والمتغيرات قد يجر المجتمع إلى الانهيار، وخير شاهد على ذلك عند لوبون، هو انقراض بعض الكائنات الحية، لقد حدث ذلك بسبب فشلها في التكيف مع الأوضاع الجديدة، والإنسان عنده لا يشد عن هذه القاعدة.

وهنا يكون المجتمع أمام رهان كبير، واستمراره مرتبط بمدى نجاحه في التوفيق بين الصلابة والمرونة، بحيث يتمكن من المحافظة على الصفات النفسية التي تمنحه هويته، وفي نفس الوقت تساعده على تجاوز المستجدات الطارئة، التي لم تصطدم بها أجياله السابقة. وهذا التحدي يمكن مواجهته وفق الحكمة القائلة لا إفراط ولا تفريط، التي تمنع رجحان الكفة بشكل كبير لأحد طرفي المعادلة، واقصد بذلك الثبات والمرونة.

ويرى لوبون أن صفات المجتمع يمكن تقسيمها إلى نوعين: صفات نفسية ضرورية ميزتها الثبات، تعمل على حفظ الميزات الأساسية للمجتمع، مثل الشجاعة والإرادة القوية. وصفات نفسية ثانوية مصدرها البيئة، وهي صفات قابلة للتجدد بدون انقطاع. ولفهم ذلك وظف مثال استقاه من الصفات التي تظهر على الثوار وأبرزها صفة العنف، هذه الصفة مهما تعاظمت فإنها حسب لوبون لن تتسبب في إحداث تغيير عميق في الطبع النفسي العام للمجتمع، لأنها لا تمس إلا السطح، وأن المجتمع سيعود لطبيعته عندما يستقر الوضع (لوبون، 1957، 183)، وهذا ما حدث للفرنسيين إبان ثورة 1789م فقال: "إن كل التشكيلات العقلية أو الذهنية تحتوي على خصائص يمكنها أن تبرز إلى السطح تحت تأثير التغيير المفاجئ للبيئة، وهكذا يمكننا تفسير وجود برجوازيين وديعين في صفوف الثوار الفرنسيين الهائجين، وكان يمكن لهؤلاء البرجوازيين أن يكونوا في الحالات العادية كُتَّاب عدل مسالمين" (لوبون، 2011، 55). إنهم انخرطوا في صفوف الثوار، ثم عادوا إلى سيرتهم الأولى بمجرد زوال هذا الطارئ. لأن الطبع الذي هو أساس روح الشعب كما قال لوبون:" لم يتبدل وإذا تنكر الطبع caractère قليلا فإنه لا يلبث أن يعود كما كان" (لوبون ، 1934 ، 174) ومن بين الشعوب التي نجحت في التوفيق بين صلابة العرق ومرونته، ذكر لوبون روما في العصور القديمة، وانجلترا في عصره (Le Bon G, 191, 49) إن المجتمع الانجليزي

عنده بقي محافظا على طباعه النفسية، رغم ما يبدو عليه من تطور في كل المجالات، وقد شبهه بالنهر الذي نظن أنه يتغير عندما نرى حركة المياه فيه، لكنه في الحقيقة ثابت في سيره بثبات ضفتيه، وضفتي الأمة عند لوبون هي صفاتها النفسية الموروثة، مثل العقائد والعادات والقانون والأخلاق والتربية، وهي الصفات الأساسية التي قلما يلحقها تغيير(Le Bon G,1916, 49) .

لكن إذا حدث التغير في الطباع الأساسية للمجتمع، فإن لوبون يعتقد أنه ليس في أحسن أحواله، بل هو في طريقه إلى الزوال. وقد لخص لوبون هذه العملية المعقدة في قوله: "الواقع أن أكبر همين للإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض، كان يتمثلان في خلق شبكة من التقاليد أولا، ثم في تدميرها عندما تكون أثارها الايجابية والنافعة قد استنفدت، وبدون تقاليد ثابتة، لا يمكن أن توجد حضارة، وبدون الإزالة البطيئة والتدريجية لهذه التقاليد لا يمكن أن يوجد تقدم، والصعوبة تكمن في إيجاد توازن عادل بين الثبات والتحول وهذه الصعوبة ضخمة جدا" (لوبون، 2011، 111)، ويمكن تلمس صعوبة التوفيق بين الصلابة والمرونة بمقارنتها مع محاولة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة التي تعتبر حلا مناسبا لتطور واستمرار الأمم. هذا بالنسبة للعامل الأول وهو الإنسان وما يتصل به من شروط نفسية وبيولوجية تساهم في تكوين طباع المجتمع، لكن الأمر كله مرهون بالزمن الذي يمثل أحد أهم شروط النهضة عند هذا المفكر.

2. الزمن

الإنسان هو أكثر الكائنات وعيا بالزمن، وقد تزايد هذا الوعي مع اختراع الساعة التي مكنته من التعامل مع الوقت بصورة موضوعية (ولسون، 1992، 39). ويعرف الزمن بأنه المدة الواقعة بين حادثتين، أولهما سابقة وثانيهما لاحقة (صليبا،

1982، 636). وقد عرفت البشرية تصورات متباينة لطبيعة الزمن وحركته، فكان الإغريق يعتقدون أن الزمن يسير في حركة دائرية، وقد نجم هذا التصور عن ملاحظتهم لحركة الكواكب والأفلاك، ومن هنا نشأ عندهم ما يعرف بالعود الأبدي (الخولي، 1999، 44). وبمجيء الديانات السماوية، أصبح للوقت بداية، وهو في تقدم مستمر نحو النهاية التي أخبرت عنها الكتب السماوية. ونفس التصور عن الزمن نجده في عصر النهضة لدى فلاسفة الأنوار. ثم جاء العلم التجريبي ليكرس فكرة التقدم التي تميز حركة الزمن، عندما أكدت التجارب في حقل الديناميكا الحرارية، أن الظواهر الحرارية غير قابلة للارتداد إلى الوراء، وأن الحرارة تنتقل دائما في اتجاه واحد، من الجسم الساخن إلى الجسم الأبرد (الخولي، 1999، 45)، وبهذا اتضح أن الزمن لا يلتفت إلى الخلف أبدا. وهو التصور نفسه الذي ذهب إليه لوبون. لكن نظرته للزمن كانت أعمق، لأنه لا ينظر إليه على أساس أنه مجرد تتابع لحركات الأشياء، بل هو أكبر من ذلك، يقول في قيمة الزمن: "الشخص الذي يمتلك القوة السحرية للتحكم بالزمن والتلاعب به، سوف يمتلك الجبروت الذي يعزوه المؤمنون لإلهتهم" (لوبون، 2011، 103)، ونفهم من هذا أن الزمن له دخل في كل ما يحدث في العالم، بل القول يشير إلى عملية الخلق، وهذا ما أكده في قوله: إن الزمن "يمثل المولد الحقيقي، والمدمر الكبير الذي بنى الجبال من حبات الرمال، ورفع إلى مستوى الكرامة البشرية، تلك الخلية الحية الصغيرة عبر الأزمنة الجيولوجية" (لوبون، 2011، 103).

والزمن الذي يظهر أثره في كل شيء، لا يمكن أن يغيب عن الإبداع الحضاري، بل الأمة المبدعة للحضارة في حد ذاتها، ما كانت لتكون لولا عامل الوقت. فكل أمة في حاجة إلى زمن كافي حتى تتشكل، ومن ذلك أن الشعب الفرنسي حسب لوبون، اقتضى ظهوره مرور أكثر من عشرة قرون، حتى أصبح على ما هو عليه الآن (Le Bon G,1915, 17).

ولن يتوقف دور الزمن عند حدود إيجاد الأمة، بل يعمل على تكوين مختلف الأنظمة والأفكار السائدة فيها، يقول لوبون: "إن الزمن هو الذي يطبخ أراء وعقائد الجماهير على ناره البطيئة، بمعنى أن يهيئ الأرضية التي ستنشأ عليها وتبرعم" (لوبون، 2011، 103). ونظرا لأهمية الزمن نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي لم يغفله في مشروعه الحضاري، بل جعل منه أحد شروط الحضارة (بن نبي، 1987، 145) ويعتقد بن نبي أن الأمم التي تحسن التصرف في الوقت، فإنها لا تلبث أن تحقق تقدما سريعا، وكمثال على ذلك، ذكر ألمانيا التي تعرضت لتدمير إبان الحرب العالمية الثانية مسَّ البنى التحتية، وكل مفاصل الاقتصاد، لكن حُسن استغلالها لعنصر الزمن، ساهم في تسريع التنمية فيها بصورة قياسية (بن نبي، 1987، 148) وسنرى أثر الزمن بوضوح في ظهور الأفكار.

3. الأفكار

عندما حلل لوبون الحضارة، تبين له أنها تستند إلى الأفكار، والفكرة عنده هي تصور جديد يظهر في أمة معينة وفي زمن معين، يأتي بها أحد الأفراد، ثم تنتشر إلى باقي أفراد مجتمعه يقول:" إذا ما تناول المبدأ ـ الفكرة ـ عامل العدوى، فأخذ ينتشر دخل الدور المؤدي إلى النجاح بحكم الضرورة، سرعان ما يقبله الرأي العام، وهنالك يكتسب قوة نفاذة دقيقة ينتشر بها في جميع الأدمغة بالتدريج" (لوبون، 1957، 148). وظل يكرر في كتبه أن الأفكار هي محرك الحضارات وسبب تطور الشعوب Rouvier) (C,1986:81، وكما أن الفيزياء تستند إلى فكرة أساسية واحدة وهي عدم فناء الطاقة، والبيولوجيا تقوم على قانون التحول، فإن الحضارة بنظره أيضا تقوم على أفكار محدودة جدا. فالغرب في العصور الوسطى كانت تسيره فكرة الإقطاع أو الفكرة

الدينية، وفي عصر النهضة كان يسير على هدي المثل الأعلى اليوناني، ثم ظهرت أفكار أخرى في العالم المعاصر ومن بينها فكرة الاشتراكية (لوبون، 1957، 145).

ويعتقد أن الفكرة ليست بنت اللحظة الراهنة، وهذا ما جعله يرفض تفسير التاريخ الذي يتمحور حول البطل باعتباره صانعا للوقائع التاريخية، وهو التفسير الذي تعلق به كثيرا توماس كارليل Thomas Carlyle (1795.1881م)، فالتاريخ العالمي عند هذا الأخير يمكن اختصاره في ما أنجزه العظماء (صبحي، 1975، 64). وهذا غير صحيح عند لوبون، فإذا نُسبت لشخص معين فكرة ما، فهذا لا يؤهله لاحتلال مرتبة الأبطال، لأن الأفكار كما قال:" لا تنبت بالصدفة أو عن طريق المغامرة، وإنما نجد جذورها تضرب عميقا في ماضي طويل، وعندما تزهر يكون الزمن قد هيأ المجال لتفتحها، وإذا ما أردنا أن نفهم منشأها، فينبغي دائما أن نرجع في الزمن إلى الوراء فهي بنات الماضي وأم المستقبل وعبدة الزمن دائما" (لوبون، 2011، 103)، فبأي وجه حق تُنسب الفكرة لهذا الشخص أو ذاك؟ إن الزمن هو صانع الفكرة، ولا علاقة لها بالأفراد مهما كانت هويتهم، وهذا ما يفسر إهمال لوبون لشخصيات الثورة الفرنسية، اعتقادا منه أنها كانت خاضعة للزمن الذي عمل على تكوينها في النفوس فقال: "الأفكار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنسية أخذت وقتا طويلا قبل أن تنغرس في الروح الشعبية"،(لوبون، 2011، 84) ثم جسدها على أرض الواقع روبسبير Robespierre (1758 . 1794م) وغيره من مشاهير الثورة الفرنسية.

وتتكون الأفكار بالتزامن مع تشكل المجتمع، لهذا تستغرق أزمنة طويلة، وعندما تصبح كل الظروف مهيأة يكفي أن يحملها أحد أفراد الأمة، ليتحقق الغرض من وجودها. بمعنى أن الأبطال والعباقرة لا يظهرون اتفاقا، ولا بمعجزة، وإنما يمثلون في حقيقة الأمر خلاصة مجهودات اسلافهم (لوبون، 1957، 164)، وأنهم تقمصوا المثل الأعلى الذي يؤمن به قومهم فقط. يقول لوبون إن "موسى تَمثّل رغبة اليهود في

الخلاص التي كانت تنطوي عليها جباههم المستعبدة، أيام كانت تمزقها سياط المصريين. وبوذا وعيسى عرفا أن يستمعا لِـما في زمانهم من بؤس لا حد له، وأن يعبرا بالدين عن ضرورة الإحسان والرحمة التي أخذت تلوح في العالم أيام الألم العام" (لوبون، 1957 ، 167). ولهذا لا يعتقد لوبون أن نابليون بونابرت هو الذي صنع التاريخ، بل هو صنيعة التاريخ، وكان يمكن أن يظهر بدله أي مغامر فرنسي آخر، مادامت الظروف قد تهيأت للثورة، يقول لوبون:" ليس بروميرـ الشهر الثاني من السنة الجمهورية في فرنسا قديما ـ هو الذي صنع نابليون بل روح العرق الذي أخذ يركع تحت قدمه الحديدية" (لوبون، 1957 ، 42).

وإذا ظهرت الفكرة وجاء من يتقمصها ويخرجها إلى السطح، فلن يمر وقت طويل حتى تجلب الانتباه، وفي البداية ستشهد لغط وأخذ ورد، ثم ينشأ حولها جدل بين المعارضين والمؤيدين، ويستمر الجدل إلى غاية أن يعلن الشباب تعلقهم بها، ويفسر لوبون تعلق هذه الفئة من المجتمع بالأفكار الجديدة بسبب "ولوعها بالاستقلال في كل وقت، وتتصف اتصافا كليا بمعارضتها دفعة واحدة للمبادئ التي سار الناس عليها" (لوبون، 1957، 147)، وهنا يصبح للفكرة أنصار يدافعون عنها، خاصة مع توفر عنصر التقليد لدى هذه الفئة وغيرها من فئات المجتمع.

ثم تتغلغل الفكرة في منطقة اللاشعور، وكلما استقرت في أعماقه أكثر، كلما زادت سيطرتها على سلوك أفراد العرق، وفي المقابل يتقلص دور العقل، يقول لوبون:" ولا تكون المبادئ ذات عمل حقيقي في روح الأمم إلا إذا هبطت بنضج بطئ جدا من مناطق الفكر المتحولة إلى المنطقة الثابتة اللاتنبهية للمشاعر حيث تنضج عوامل سيرنا، وهنالك تغدو تلك المبادئ عناصر أخلاق فتقدر على التأثير في السير" (لوبون، 1957 ، 144) وهذا هو سبب الاستقرار النسبي للحضارات عند لوبون، خاصة عندما

تتحول الفكرة إلى مثل أعلى، وقد يظهر في صورة عبادة الوطن أو حب الاستقلال والمجد، وقد يظهر في شكل عقيدة دينية (Rouvier C,1986,221)

ولكن الفكرة قبل أن تستقر، ستعرف تعديلا مستمرا، ويصيبها أثناء نزولها إلى منطقة اللاشعور بعض التحريف إلى أن تستقر نهائيا، يقول لوبون:" لابد للمبدأ الجديد، لكي يعطي جميع نتائجه، من أن ينفذ روح الجماعات ويهبط المبدأ من الذرى الذهنية التي نبت فيها، إلى الطبقة التي تليها، فإلي التي ما بعدها مشوها معدلا بلا انقطاع، إلى أن يكتسب شكلا يلائم الروح الشعبية التي ستنصره، وهنالك يبدو المبدأ متجمعا في كلمات قليلة، وفي كلمة واحدة أحيانا، مثيرا صورا قوية مغرية أو هائلة ومن تم مؤثرة على الدوام" (لوبون، 1957، 150،151). أي أن الفكرة تتعرض اثناء تشكلها لضرب من الضغط، يشبه ضغط المستندات في الحواسيب للاستفادة من مساحة التخزين. فإذا كنا نحتاج إلى مؤلفات عديدة من أجل الإفصاح عنها، فإن الزمن يقوم بضغطها في كلمات، مثل الحرية والمساواة والأخوة. وهذا الضغط حسب لوبون يتيح للخيال أن يسبح بعيدا، يقول: "الكلمات التالية: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، الخ فمعانيها من الغموض بحيث نحتاج إلى مجلدات ضخمة لشرحها، ومع ذلك فإن حروفها تمتلك قوة سحرية بالفعل، كما لو أنها تحتوي على حل لكل المشاكل" (لوبون، 2011، 116)، فيكون لكل فرد تصوره الخاص حول هذه الكلمات المضغوطة.

وعندما يستقر أمر الفكرة، فإن عناصر الحضارة، وكل ما ينتجه الإنسان في هذه الأمة التي أمنت بها، سيكون مصبوغا بطابعها، سواء في العلوم أو الفلسفة أو العمران، وقد أشار إلى هذا المعنى مُحَمَّد عابد الجابري عندما تناول ظهور علم الجبر والمقابلة في العالم الإسلامي فقال:" إننا نكاد نجزم بأن الجبر العربي يدين في وجوده

للفقه والفقهاء" (الجابري، 2009، 99) ونفس الشيء يقال بالنسبة لعلم الفلك في هذه الحضارة، لأن الفكرة الدينية هنا تكون قد أخذت بمجامع المسلمين.

إذن الحضارة عند غوستاف لوبون هي نتيجة لفكرة ما، وقد يكون مالك بن نبي قد اقتبس منه هذا التصور وهو بصدد البحث في مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، فقال:" إن حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية، تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر، الدفعة التي تدخل به التاريخ" (بن نبي، 2006، 41). هذا بالنسبة لظهور الفكرة عند لوبون. وزوالها أيضا عنده يتطلب مضي زمن طويل، حتى تخبو جذوتها، ويلفها الظلام. وفي هذا قال:"إذا كان يلزم وقت طويل لكي تترسخ الفكرة في نفوس الجماهير، فإنه يلزم وقت لا يقل عنه طولا، لكي تخرج منها" (لوبون،2011، 85)، وموت الفكرة لا يكون مفاجئا بل يكون مسبوقا بإرهاصات، إذ لابد من وجود عوامل تسبب انحلالها. وقبل أن تزول الفكرة ستعرف تحولات مستمرة في أجيال متعاقبة كفكرة مشوهة، يقول لوبون:" لا مراء فيه إن المبدأ (الفكرة) الجديد يعاني أيضا ما عناه المبدأ الذي حل محله، فيهرم ويميل إلى الزوال، غير أنه لا بد من إن يعاني قبل اندثاره التام أدوارا من المسخ والتحريف في عدة أجيال" (لوبون، 1957، 151)، لهذا لا داعي لاستعجال ظهور الفكرة، أو الرغبة في التخلص منها، ولنترك ذلك لعامل الوقت، ومن أهم الأفكار التي يطبخها، الزمن بتعبير لوبون، نجد الدين والعادات والتقاليد.

3 . 1 الدين

الدين ظاهرة عامة موجودة في كل مكان، لدرجة توحي بأن التدين سلوك فطري، لكن الدين عند لوبون شأنه شأن الأفكار، فما ينطبق عليها ينطبق عليه، ولما كانت الأفكار تاريخية فإن الدين تاريخي أي زماني بمعنى له بداية ونهاية، فهو عبارة

عن فكرة يضعها الإنسان، ومع مرور الزمن تتحول إلى عقيدة يقول لوبون:" تنضج المعتقدات في عالم اللاشعور ولا سلطان للعقل، ولا للإرادة عليها، وهي نتيجة تلقين كالتي يأتي بها جميع المنّومين في الوقت الحاضر" (لوبون، 1946، 147)، وعندما يظهر الدين يبدأ في توجيه سلوك الأفراد، ويترك بصماته في الحضارة، ثم يموت شأنه في ذلك شأن الظواهر الطبيعية، وبالأحرى يغير اسمه، يقول لوبون:" المعتقدات تشبه الحركة التي درست في كتب الفيزياء تتحول أحيانا، ولكن من غير أن تموت أي أن المعتقدات تغير اسمها، وهذا التغيير هو الذي نسميه موتا" (لوبون، 1957، 152).

والقول بأن الدين مصدره البشر، ليست فكرة جديدة في الفكر الإنساني، بل ظهرت محاولات سابقة، لخصها فراس السواح في كتابه دين الإنسان في نظريتين، الأولى ردت الدين إلى العقل، والثانية نسبته إلى أصول عاطفية، ويرى أن النتيجة التي تستدعيها كلا النظريتين، هي أن الدين لا ينبع إلا عن وهم خلقه خيال البشر أو عواطف الناس عبر التاريخ (السواح، 2002، 313) وهو نفسه التصور الذي نجده عند غوستاف لوبون. لكن إذا كان الخوف والطمع مصدر للدين، وهو تفسير انتشر بقوة في عصر الأنوار (ديورانت، 1988 ب، 289)فإن لوبون يستبعده، ويُبقي على الطمع تحت مسمى الأمل، لأنه لو كان الخوف سبب وجود الدين، لتوقفت الحاجة إليه متى توفر الأمان وهذا لم يحدث. وبالتالي الدين مستمر عند لوبون بسبب استمرار الأمل فيما هو أفضل، وتأتي سلطة الدين عنده، لكونه مستقر في أعماق الأفراد، يقول: " المعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يُكره الإنسان على تصديق فكر، أو رأي، أو تأويل أو مذهب"، (لوبون، 1946، 7) وهذا يجرنا للحديث عن خصائص الدين عند هذا المفكر.

يحدد غوستاف لوبون هذه الخصائص، ويرى أن كل إيمان يتوفر عليها ومهما كان شكله، فإنه يرقى إلى درجة الأديان، حتى ولو كان حزب سياسي. وقد جمعها

فيما يلي: أولا عبادة ذات يعتبرها أتباعها خارقة للعادة، والخوف من القوى التي تعزى إلى هذه الذات، والخضوع الأعمى لأوامرها، واستحالة أي مناقشة لعقائدها، والرغبة في نشر هذه العقائد، والميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء (لوبون، 2011، 91). هذه الخصائص إذا توفرت عند شخص أو جماعة، فإنها تهيمن عليه وستتحكم في كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال، وأهم هذه الخصائص عند لوبون هي عدم مناقشة العقائد، أي تجنب إعمال العقل وممارسة النقد في قضايا الدين، وأي محاولة من هذا القبيل مآلها الفشل، يقول لوبون:" وما تأثير البرهان فيها إلا كتأثيره في الجوع والعطش، فالمعتقد إذا نضج في منطقة اللاشعور، حيث لا يصل إليها العقل، عاناه المرء غير محاج فيه" (لوبون، 1946، 8). ونفهم من هذا أن الدين لا ينسجم مع التفكير المنطقي، وقيمته تكمن في فعاليته، وفي ما يتركه من أثار بارزة للعيان عندما تأخذ عناصر الحضارة في هذا العرق طابع الدين المنتشر فيها، سواء في نظمها السياسية والاقتصادية، أو على مستوى الفنون والعمران والعلوم. لذلك إذا أردنا أن نبحث في الحضارة علينا كما يقول قسطنطين زريق: "سبر غور الدين السائد فيها وإدراك روحه، وعقائده ونظمه" (زريق، 1971، 95)، لأن الدين ينعكس على حياة المتدين، ويقول لوبون في هذا :"على الفرضيات العلمية يقوم صرح معلوماتنا ومعارفنا، وعلى الفرضيات الدينية شيدت أركان جميع المدنيات" (لوبون، 1928، 356).

هذا هو الدين عند لوبون وهذه طبيعته وكيفية ظهوره ومصدر قوته، وسيبقى يمد العرق الذي يؤمن به بأسباب القوة وعوامل الانتصار والتقدم، شرط الالتزام بعدم الجدل في تعاليمه والحفاظ على مبادئه مهما كانت متناقضة مع المنطق العقلي، في منأى عن كل نقد، وأي إخلال بهذا الشرط يعني أن هذه العقيدة في آخر مراحلها، وأنها في طريقها إلى الزوال، لتحل محلها فكرة دينية أخرى، ودائما مصدرها الإنسان،

لكنها تتميز بنفس القوة التي كانت تملكها الفكرة الدينية السابقة، إذا التزمت الشروط اللازمة، لأنه كما قال لوبون:" ليس للإيمان عدو يخشاه سوى الإيمان" (لوبون، 1957، 149).

3 . 2 العادات والتقاليد

العادات والتقاليد عوامل لا يمكن إهمالها في ظهور الحضارات عند غوستاف لوبون، لأنها تلعب دورا مرجحا في حياة المجتمع، وتخلق وحدة التفكير وتشكل وحدة الفعل، ولا توجد حضارة بدونها، وكل شعب فقد عاداته التي تقوده في نشاطه سيتذبذب وتقوده الصدف حسب إرادتها، ثم يسقط في الفوضى، وبدون العادات والتقاليد التي توجه حياة الإنسانية، لن يكون هناك تاريخ (Le Bon G,1931,46) ، لكن هذه العادات والتقاليد لن تتمتع بهذه المزايا ما لم تهبط إلى عالم اللاشعور، شأنها شأن الدين والعواطف.

وبالنظر إلى أهمية العادات والتقاليد عندما تستقر في أعماق اللاشعور، يوصي لوبون المشرعين عندما يضعون القوانين التي تنظم حياة الناس، بضرورة الالتفات إلى العادات والتقاليد. لأن هذه الأخيرة، سيكون لها احترام أكبر، لما تبرز في صيغة قانون، كان معهودا عند الأفراد. أما إذا اجتهد المشرع وحاول وضع قوانين تتناقض مع العادات والتقاليد السائدة، فإنها لن تكون فعالة، لذلك إذا أريد للقانون أن يكون فعالا، يجب أن يقُنن العادات فقط لا أن يتقدمها، لأن القانون عند لوبون وجد ليعزز ويدعم العادة الموجودة وليس لينشأ عادات، (Le Bon G,1931,171) وفي هذا يقول إن:" العادة هي التي تملي علينا كل يوم ما يجب أن نقوله ونفعله ونفكر فيه" (لوبون،1946، 18)، والأهمية التي يوليها لوبون للعادات والتقاليد، لا تعني أنه يجهل خطرها المدمر عندما تتحول إلى عائق يقف أمام التجديد الضروري الذي يضمن استمرار الأمة.

4. البيئة

إذا كانت الصفات النفسية هي التي يجب أن ننظر إليها في الإنسان عند الحديث عن عوامل الحضارة، فإن الإنسان ككل جسما ونفسا في حاجة إلى موقع جغرافي من العالم يتخذ منه موطنا، والمعروف أن أصقاع الأرض متباينة التضاريس والمناخ، ويبدو أن الحضارات تظهر في أماكن، وتنعدم في أماكن أخرى. وقد نتج عن هذه الملاحظة ظهور رأي ينسب الحضارة للعوامل التي توفرها البيئة، فتكون الحضارة المصرية على سبيل المثال هبة النيل كما قال هيرودوت (ديورانت، 1988ب، 49). وعلى هذا الأساس يمكن فهم ما قاله أرسطو وهو بصدد المفاضلة بن الأمم، حيث نسب التفوق للأغارقة، لأنهم كما قال: "يشغلون موقعا وسطا من الأقاليم" (ارسطو،1957، 371). كما أن ابن خلدون أيضا أشار إلى تأثير البيئة في أخلاق الناس إذ كتب في مقدمته تحت عنوان في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم فقال:" إن ساكنة الإقليم الرابع والثالث والخامس من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر منها" (ابن خلدون، 2001، 90). وكان يعلل الطيش والخفة وكثرة الطرب التي تميز طبع الزنوج، بارتفاع درجة الحرارة في الإقليم الذي يتواجدون فيه، حيث يقول:" ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر تفشيا، فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا، ويجئ الطيش على إثر هذه" (ابن خلدون، 2001، 94). أما مونتيسكيو Montesquieu(1689 . 1755م) فقد رد البسالة التي يتمتع بها الجنود في مقدونيا الرومانية إلى جغرافية المنطقة فقال:" مقدونيا بلد محصن تقريبا من كل الجهات بجبال

منيعة سكانها أهل بأس وشدة موصوفون بالشجاعة والانضباط والحيوية والصبر، ولابد أن تكون لهذه الخصال صلة بالمناخ إذ أقوى جنود العثمانيين اليوم يأتون من تلك المنطقة بالذات" (مونتيسكيو، 2011، 56)، فكان هذا مؤشر على دور البيئة فيما يقوم به الأفراد من أعمال. هذه الآراء وإن وردت في مؤلفات هؤلاء وغيرهم، فإن تفسير الحضارة بما تجود به الطبيعة من ظروف مادية، لم يكن مقنعا للكثير من الدارسين، ومن ذلك أن أرنولد توينبي لم يجد مشقة في دحضها، إذ يقول:" لقد شاهدنا تداعي نظرية العنصر عند اختبارها بهذا المعيار، ويتضح لنا الآن أن نظرية البيئة وإن كانت أقل مجافاة للعقل، إلا أن نصيبها من الصحة ليس بأكثر من نصيب نظرية العنصر" (توينبي، 2011، 95)، ثم إذا كانت البيئة مصدرا للحضارة، فلماذا نجد الحضارات لم تظهر بشكل متقارب في البيئات المتشابهة؟

وهذا ما دفع لوبون إلى القول بأن الحضارة سواء في مصر أو أمريكا هي من صنع الإنسان وبالأحرى العرق التاريخي أو المجتمع الذي يتوفر على طبع نفس مناسب للأبداع الحضاري، وليس البيئة. إن لوبون يراهن على ما يحمله الإنسان من طباع موروثة، تؤثر في أعماله ونشاطه أينما حل، مستبعدا دور البيئة، فقال:" إذا نظرنا إلى العروق التي ثبتت منذ زمن طويل بفعل الوراثة أمكننا أن نقول إن تأثير البيئات فيها يكاد يكون صفرا" (لوبون، 1957، 67)، ودليله على ذلك أن الانجليز لما حلوا في أمريكا الشمالية، تمكنوا من تشييد حضارة قوية هناك، أما اللاتينيون الذين سيطروا على أمريكا الجنوبية، فلم يحققوا ما حققه نظرائهم في الشمال، ولم يستفيدوا مما توفره البيئة هناك، وسبب ذلك أن الطبع اللاتيني غير مؤهل بعد لصنع الحضارة، عكس الطبع الانجليزي الذي سيقيم الحضارة أينما ذهب (لوبون، 1957، 126، 127).

ومع هذا فإن لوبون لا يستبعد البيئة بشكل مطلق، لأن تاريخ الأمة في مرحلة من مراحه الحرجة، قد يكون واقع تحت رحمتها، خاصة عندما يكون العرق النفسي في

طور التكوين (لوبون، 1957، 66، 67)، لكن بمجرد استقرار الصفات النفسية، وظهور طبع يميز هذا العرق، فإن فعالية البيئة تتعطل وتترك المجال للوراثة والزمن. وكان يعلم مقدار التضارب في الدور الذي تقوم به البيئة في الحضارة، ولم يجد تفسيرا مناسبا لذلك، إلا القول بأن: "البيئات مادية كانت أو أدبية، ذات قوة أو ضعف بحسب الأحوال، وبهذا نفسر السبب في تناقض ما دار حول تأثيرها من الآراء " (لوبون، 1957، 67). فكان دورها عند لوبون مرتبط بالمرحلة التي يمر بها العرق التاريخي. مقتربا بذلك من هيجل الذي لم يعارض القائلين بتأثير البيئة في السلوك، لكنه أبدى تحفظا إزاءها، فقال هيجل: " لا ينبغي أن نغالي في تأكيد شأن الطبيعة، ولا أن نهون من شأنها، فمن المؤكد أن جو أيونيا المعتدل قد أسهم في إضفاء الصفاء والرقة على أشعار هوميروس، ولكن هذا الجو وحده لا يخلق لنا شعراء من طراز هوميروس، كما أنه لا يظل يأتي بمثلهم ففي العهد التركي لم يظهر شعراء" (هيجل،2007 ، 158). ولهذا كان هيجل يعتقد أن المناطق المتجمدة والحارة ليست المكان المناسب لظهور الحضارات فقال: "ففي المناطق المتطرفة لا يستطيع الإنسان أن يكون حرا في حركته، فالبرد والحر في تلك المناطق من القوة بحيث لا يسمحان للروح أن تقيم عالما لذاتها" (هيجل، 2007 ، 158).

وعلى ذلك فإن مسرح التاريخ عنده يقع في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وباقي الشعوب تقع خارج التاريخ. وما يمكن قوله عن دور البيئة في الحضارة عند لوبون، أنه محدود جدا، بحيث لا تمس إلا تلك الصفات الثانوية في العرق، وهي صفات من الضعف بحيث لا تؤثر في مسيرته، أما الصفات النفسية الأساسية، فهي شأن وراثي لا يترك أي مجال لتدخلها، وكان من الممكن أن يتجاهلها لو لم يكن يكتشف دورها المرحلي، الذي يبدأ عادة متزامنا مع ظهور الأعراق الجديدة.

الخاتـــمة

ونخلص إلى القول في نهاية هذا المقال، أن الحضارة عند لوبون لا تظهر إلا إذا توفرت شروطها الأساسية، وهي الزمن والأفكار، وأهم من ذلك كله الإنسان، ولابد أن تكون الأمة التي تسعى للمساهمة في الحضارة الإنسانية، قد بلغت مرحلة العرق التاريخي، الذي يتوفر على طبع نفس فعال، تحققت فيه شروط النهضة الأساسية وهي الإنسان والزمن والأفكار والبيئة.

وقد حاولت الكشف عن البعد النفسي في هذه الشروط، فانتهى التحليل إلى نتيجة ملخصها أن الحضارة عند غوستاف لوبون يشيدها الإنسان بفضل ما يتمتع به من مقومات نفسية وبيولوجية، ولذلك كان تفسيره للحضارة مميزا، فهو لا يتفق في الكثير من عناصره مع أغلب فلاسفة التاريخ، وفي نفس الوقت يختلف مع الطرح الذي قدمه علماء النفس في هذا المجال، لاسيما العمل الذي قدمه سيجموند فرويد، وبيّن فيه أن الحضارة ما هي إلا نتيجة للتكيف الثقافي بين غريزة الحب وغريزة الكراهية (فرويد ، 1992، 19)، في حين لوبون نجده يقدم قدم تفسيرا جديدا يمكن أن نطلق عليه اسم التفسير السيكوبيولوجي للحضارة، لأنه كان يوظف فيه، النتائج التي وصل إليها علماء النفس، وعلماء البيولوجيا، إلى جانب ما كشف عنه البحث التاريخي من حقائق.

المراجع

المصادر باللغة العربية:

1. لوبون، غوستاف (1928) **اختلال التوازن العالمي**، ترجمة، صلاح الدين وصفي، (د ط)، مصر، مطبعة العرب للبستاني.
2. لوبون،غوستاف(1934) **روح الثورات والثورة الفرنسية**، ترجمة عادل زعيتر، (ط2)، مصر، المطبعة العصرية.
3. لوبون، غوستاف (1946) **الآراء والمعتقدات**، ترجمة عادل زعيتر، (ط 2)، القاهرة ، المطبعة العصرية،.
4. لوبون، غوستاف (1949) **روح التربية**، ترجمة عادل زعيتر، (د ط)، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
5. لوبون، غوستاف (1957) **السنن النفسية لتطور الأمم**، ترجمة عادل زعيتر، (د ط)، مصر، دار المعارف.
6. لوبون، غوستاف (2007) **روح الاجتماع**، ترجمة احمد فتحي زغلول باشا، (د ط)، الجزائر، وزارة الثقافة الجزائرية.
7. لوبون، غوستاف (2009) **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، (ط 1) ، القاهرة، دار العالم العربي.
8. لوبون، غوستاف (2010) **حضارات الهند**، ترجمة، عادل زعيتر، (ط 1) ، القاهرة، دار العالم العربي.
9. لوبون، غوستاف (2011) **سيكولوجية الجماهير**، ترجمة هاشم صالح، (ط 3) ، بيروت ، دار الساقي .

المصادر باللغة الفرنسية

1. Le Bon , Gustave (1916), **La Révolution française et la psychologie des révolutions** , Paris, Ernest Flammarion Éditeur.
2. Le Bon, Gustave (1915), **Enseignements psychologiques de la guerre européenne** , Paris, Ernest Flammarion Éditeur.
3. Le Bon, Gustave (1931), **Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire**, paris, Ernest Flammarion éditeur.

المراجع باللغة العربية

1. ابن خلدون (2001) **مقدمة ابن خلدون**، (د ط) ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
2. ابن منظور (1970) **لسان العرب المحيط**، المجلد الثاني، (د ط)، بيروت، دار لسان العرب .
3. أرسطو (1957) **السياسيات**، ترجمة الاب اوغسطينوس بربارة البولسي، (د ط) ، بيروت، المطبعة البولسية .
4. بن نبي، مالك (1987) **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين ، (ط4)، دمشق، دار الفكر.
5. بن نبي، مالك (2006) **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ت، بسام بركة، أحمد شعبو، (د ط)، دار الفكر، بيروت، دمشق.
6. توينبي، ارنولد (2011) **مختصر دراسة للتاريخ**، (د ط) ، ج 1، ترجمة فؤاد مُحَمَّد الشبل، القاهرة ، المركز القومي للترجمة.
7. الجابري، مُحَمَّد عابد (2009) **نقد العقل العربي(1)**، تكوين العقل العربي، (ط 10) ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، دار الطليعة.

8. الجرجاني (2006) ، **التعريفات** ، (ط 1) ، المغرب مؤسسة الحسني .
9. الخولي، يمنى طريف (1999) **الزمان في الفلسفة والعلم**، (ط 1) ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
10. الدر، إبراهيم فريد (1983) **الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان**، (ط 1) ، بيروت، دار الأفاق الجديدة.
11. الدروبي، سامي (1961) **علم الطباع، المدرسة الفرنسية**، (د ط) ، القاهرة ، دار المعارف.
12. ديورانت، ول (1988ب) **قصة الفلسفة**، ترجمة فتح الله مُحَمَّد المشعشع،(ط 6)، بيروت، مكتبة المعارف.
13. ديورانت، ول (1988 أ) **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود ، ج 2 من المجلد 1 ، (د ط)، بيروت، دار الجيل .
14. الرازي، مُحَمَّد بن عمر بن الحسين (2006) **كتاب الفراسة**، (د ط) ، القاهرة ، المكتبة الأزهرية للتراث.
15. زريق، قسطنطين (1971) **في معركة الحضارة**، دار العلم للملايين ، (ط 4)، بيروت .
16. السواح، فراس (2002) **دين الإنسان**، (ط 4)، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.
17. صبحي، أحمد محمود (1975) **في فلسفة التاريخ** ، (د ط) ، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية .
18. صليبا، جميل (1982) **المعجم الفلسفي**، ج 1، (د ط) ، لبنان ، دار الكتاب اللبناني .
19. عيسوي، عبد الرحمن مُحَمَّد (1989) **علم النفس الفسيولوجي**، دراسة في تفسير السلوك الإنساني، (دط)، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
20. فرويد، سيغموند (1992) **الحب والحرب والحضارة والموت**، ت عبد المنعم الحفني، (ط 1)،القاهرة، دار الرشاد.
21. فرويد، سيغموند (1997) **الطوطم والحرام**، ترجمة جورج طرابيشي، (د ط) ، بيروت، دار الطليعة للطباعة.
22. فرويد، سيغموند (2006) **علم نفس الجماهير**، ترجمة جورج طرابيشي، ط 2،بيروت،دار الطليعة للطباعة.
23. المليجي، حلمي (2004) **علم النفس المعرفي**، (ط 1)، بيروت، دار النهضة العربية .
24. مونتسكيو، (2011) **تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط**، ت، عبد الله العروي ، (ط1) ، لبنان ، المغرب، المركز الثقافي العربي.
25. هيجل، فريدريك (2007) **العقل في التاريخ** . المجلد الأول من محاضرات في فلسفة التاريخ، ت، إمام عبد الفتاح إمام، (ط 3)، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
26. ولسون، كولن (1999) **فكرة الزمان عبر التاريخ**، ترجمة فؤاد كامل، (د ط) ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
27. يونغ، كارل غوستاف (1994) **البنية النفسية عند الإنسان**، ترجمة نهاد خياطة، (د ط)، دمشق، دار الحوار للنشر والتوزيع.

المراجع باللغة الفرنسية

1 - Le Senne, René (1963) **traitè de caractérologie**, 7e édition, Paris, Presses Universitaires de France.
2 - Rouvier; Catherine, (1986) **les idées politiques de Gustave Le Bon** , 1 er édition, paris , presses universitaires de France.